2009 12 24 - 0003 - 36

السفير
www.assafir.com

ثقافة

تاريخ العدد ٢٠٠٩/١٢/٢٤ **العدد** ١١٤٧٨

كلاكيت

«آخر صورة»

نديم جرجوره

اللحظة مؤثّرة. هناك زوجة فُقِدَ بعلها منذ سبعة وعشرين عاماً، تكتب رسالة حب إلى أمّ فَقَدت ولديها الشابين قبل أربعة وعشرين عاماً. هناك امرأة تخاطب امرأة. هناك إنسانٌ ناضل طويلاً من أجل حقّ طبيعي في المعرفة لبلوغ شكل ما من المصالحة مع الذات على الأقلّ، يودّع إنساناً اختبر أقسى أنماط العيش في الحدّ الفاصل والواهي بين الحلم القاسي واليقظة الملتبسة. المرأة الأولى أمّ هي أيضاً. والمرأة الثانية زوجةٌ غادرها رفيق عمرها إثر مرض، قبل أن يشتعل المنزل بالفراغ المضني. المرأة الأولى مستندة إلى نَفَس آخر في محيطها. المرأة الثانية عانت وحدة وألماً لا يحتملان.

كانت الحرب الأهلية اللبنانية مندلعة. النار تلتهم الأشياء والناس. والخطف وسيلة ضغط ومناورة. ضاع كثيرون. ابتلعتهم الحرب اللعينة. أخذهم الغياب إلى المجهول. الغياب المثقل بيقين تائه. هذا أقسى من الموت. أنت لا تعرف مصير الغائب عنك. تشمّ رائحته. تراه بعيني روحك وقلبك. تلتقط نَفَسه. لكنك عاجزٌ عن الإمساك به. عن ضمّه إلى صدرك. عن منحه أجمل قبلة ممكنة. عن الاختلاف معه حتّى الغضب، فأنت مدرك أن صفاء يحكم بينكما. هذا أقسى من الموت. كانت الحرب الأهلية اللبنانية مندلعة. أمراؤها منتشون بالدم والعنف والحرائق. متربّعون، الآن، على عرش سلم أهلي منقوص وهشّ، ومنتشون، مرّة جديدة، بالدم والعنف والحريق. لا يريدون قولاً فصلاً في مسائل معلّقة. يُخفون الحقائق، لأنهم خائفون مما فعلته أيديهم.

قبل يومين، قدّمت وداد حلواني «آخر صورة: هيي وقاطعة..» تحية إلى أوديت سالم. انفتح الجرح للمرّة المليون. أطلّ الجرح للمرّة المليون، لأنه لم يلتئم يوماً. بشاعة الحرب لا توصف. لكن السلم الكاذب والبشع مذلاً لمن رفض الحرب وسعى إلى سلام حقيقي. حلواني عانت الأمرّين جرّاء فقدانها زوجاً غاب في لجّة الجحيم اللبناني. سالم سقطت في دائرة العتمة، عندما خرج ولديها الشابين الصغيرين من المنزل ولم يعودا. التقت المرأتان. عاشتا معاً أياماً مليئة بالتوتر والدمع والألم والخوف. عرفتا معاً أن الكفاح قدرٌ. ان مواجهة آلات القتل مصيرٌ. ان الصمت قاتلٌ. ان التقوقع في زواريب الطوائف ومتاهات المذاهب لعنةٌ. أرادتا معرفة المآل الذي بلغه المفقودون. كبر عدد المخطوفين. سبعة عشر ألف مخطوف ومفقود ابتلعتهم أرض مجنونة اغتصبها رجال مجانين. والتحية، إذ نبعت من قلب رقيق مُصقل بالاختبارات الحادّة والتحدّيات الصارمة، موجّهة إلى امرأة عاندت كثيراً، قبل أن تدهسها سيارة مجنونة كالأرض، يقودها مجنون كالرجال الذين اغتصبوا الأرض بأقدامهم السوداء وما شبعوا. والتحية، إذ تفرد مكاناً شفّافاً لصُوَر وحكايات ومحطّات، جعلت الكلمة ينبوعاً من العاطفة المحصّنة بالعقل والجمال الإنساني، وإن طلع من ذكريات بشعة، وذاكرة مخضّبة بالقهر والوجع.

كانت اللحظة مؤثّرة. الذاكرة حيّة. الراهن مؤلم. الأفق أسود. المقبل من الأيام قذرٌ. فهل المعاندة قدرٌ؟